الفصل الرابع

وقف الكتب والمكتبات على المارستانات والربط والخانقاهات والترب والأشخاص والذرية والوقف غير المحدد

تجاوز وقف الكتب والمكتبات عند العرب والمسلمين دور الكتب العامة والجوامع والمدارس إلى أنماط أخرى تظهر لنا أن الكتاب أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة الإنسان في أصقاع العالم الإسلامي لا يستغني عنه، وهو الأمر الذي دفع بالواقفين إلى التوجه نحو كل منشأة وقفية عامة وبالتالي إيجاد مكتبة بداخلها تلبي احتياجات مجتمعها المحدود، فنتج عن ذلك مكتبات في :

البيمارستانات.

والربط والخانقاهات

ووصل الأمر إلى إنشاء مكتبات وقفية في مقابر بعض الموتى.

وهناك من كان يوقف كتبه على طلبة العمل دون تحديد للمكان، وإن كانت الكتب الموقوفة غالباً تظل في قبضة ورثته وداخل إطار بيته.

أ ــ الوقف على المارستانات :

والمارستان أو البيمارستان كلمة فارسية الأصل تعنى بمفهومنا المعاصر المستشفيات، وكانت معروفة ومنتشرة على مدى قرون طويلة في أرجاء العالم الإسلامي، وكان بعضها مخصص للعلاج والدراسة في الوقت نفسه، وهو ما دفع بأحد الباحثين المعاصرين إلى اعتبارها مدارس طبية.

والعجيب في الأمر أن تكون مكتبات البيمارستانات من أقدم ما عرف في تاريخ المكتبة العربية رغم التخصص الدقيق للمارستان أو البيمارستان، ومن أقدم هذه البيمارستانات وأشهرها :

بيمارستان أحمد بن طولون في القاهرة :

أنشأه أحمد بن طولون الذي حكم مصر والشام والثغور، وذلك في عام ٢٥٩هـ وكان بمثابة مستشفى وكلية طب، وجعل فيه خزانة كتب احتوت على ما يزيد على مائة ألف مجلد، لم تكن في علوم الطب وحدها، بل في تخصصات متنوعة[١]، ورغم أننا نقف موقفاً حذراً من الرقم إلا أننا نستدل من الخبر على قدم العناية بالمكتبات في المستشفيات في التاريخ الإسلامي.

البيمارستان العضدي في بغداد :

وأوجد عضد الدولة البويهي في القرن الرابع الهجري مارستاناً في بغداد سمي باسمه ألحقت به مكتبة كبيرة[٢].

بيمارستان نور الدين زنكي في دمشق :

وهو من الأوقاف التي عملت في عهد السلطان نور الدين محمود بن زنكي، وعمل فيه الطبيب أبو المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠هـ «وكان نور الدين قد أوقف جملة كثيرة من الكتب الطبية، وكانت في الخزانتين اللتين في صدر الإيوان»[٣].

المارستان المنصوري في القاهرة :

وحظي هذا المارستان باهتمام الواقفين، فكان من بينهم علاء الدين علي بن علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المعروف بابن النفيس المتوفى سنة ٦٨٧هـ «انتهت إليه رئاسة الطب، وكانت وفاته بالقاهرة.. وأوقف داره وكتبه وما يتعلق به على المارستان المنصوري»[٤].

ب ــ الوقف على الربط الخانقاهات :

والربط جمع رباط وهي بشكل عام مأوى للفقراء والغرباء وعابري السبيل، ومثلها الخانقاهات ومفردها خانقاه، كما أنها كانت تستخدم في بعض الأوقات لإيواء الصوفية، ويذكر المقريزي أن الخانقاهات «حدثت في الإسلام في حدود الأربعمائة من سنى الهجرة لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى»[٥]، كما يقول عن الرباط بأنه «هو بيت الصوفية ومنزلهم ولكل قوم دارهم والرباط دارهم»[٦]، ويذكر أحد